الحجاج والتواصل

غول شهرزاد: طالبة دكتوراه
جامعة وهران /1 أحمد بن بلة.

عرفت البلاغة المعاصرة تطورات جمّة في ظل الثورة اللسانية الحديثة. فقد كان يُنظر إليها على أنها علم قديم مرتبط بالإفراط من جهة وبالكتب المدرسية من جهة أخرى. إلاّ أنها فرضت نفسها في عصرنا الحالي بمختلف وسائلها التعبيرية.

فبعدما حدد الكثير من الأدباء والنقاد حركتها ووظيفتها واختزلوها في نظرية الصياغة التي حصرتها في البحث عن الصور والوجوه البلاغية والزخارف والصنعة وإجمالا في الأسلوب فإنها تجدد الاهتمام بالمناحي التداولية المرتبطة بنظرية الحجاج اللغوي الذي كشف عن جوانب عميقة من البلاغة بوصفها تأملا في اللغة والفكر وأنها لسانيات ذهنية عامة فهي تتعلق (بكل اللغة) كما أنها (لغة الكلّ)[1]

لقد تناول المفكرون – قديما – قضية الحجاج في إطار الخطاب الشفوي المباشر من جهة والمساعدات المقامية الشكلية من جهة أخرى.

أمّا الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر، فقد برز الاهتمام به في الحقلين اللساني والنقدي. مما جعل البلاغة تفرض نفسها في مختلف ميادين المعرفة الاجتماعية والسياسية والقانونية والإعلامية بكل أنواعها، إضافة إلى الدينية والنفسية والأدبية والفنية، الأمر الذي جعل من هذا النوع المميز أن يحقق بعدا

ترابطيا بين البلاغة ونظريات التواصل، والسيميائيات في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها.

كما أصبح للتواصل مجاله الواسع، الذي يقوم على القصدية الصريحة، وعلى الدلالة الإبلاغية من خلال التأثر والتأثير المباشر في سلوك المخاطب، وقد أُستخدم الحجاج في فرع من فروع النظرية العامة للتواصل خاصة الفرع الذي اعتنى بالرسائل الإقناعية.

نشأ الحجاج في بيئة بلاغية وكلامية تعتني بالحوار وفن الإقناع، وأضحت البلاغة تسير في أفق إنساني يتلاقى مع السيمولوجيا، وتخطت دراسة اللغة وتحليل النصوص إلى فلسفة تفكير وثقافة للمجتمع وأسلوبية للحوار. هذا ما جعلها تكتسب طبيعة الازدواجية بين الآلية الحجاجية والآلية التواصلية على مستوى الملفوظ والمكتوب.

فما العلاقة بين نظريات التواصل والحجاج؟

وما العلاقة بين البلاغة والحجاج والتواصل؟

1- التواصل ونظرياته:

لقد أصبح الحديث عن اللغة لا يخرج غالبا عن ذلك النظام التقعيدي أو ما يسمى بالمعياري الذي تقيده الحقول المعرفية حسب الضوابط المعرفية والمنهجية التي تحتكم إليها. ومن ثمّ لم يخرج تعريف اللغة عند غالبية المشتغلين بالدراسات اللغوية عن قولهم "أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" [2] أو هي ظاهرة اجتماعية فكرية مركّبة[3].

كما تعتبر اللغة أداة للتواصل ومجموعة من العلامات يُستعان بها على توصيل دلالات اصطلاحية وهذا ما يظهر في قول الآمدي "لمّا كان الواحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده، دون معين ومساعد له من نوعه، دعت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصل بها كل واحد إلى معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المعينة له في تحقيق غرضه، لذلك استخدم الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خُصّ بها الإنسان دون سائر أنواع الحيوانات ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية والعبارات اللغوية"[4]

ويوافق "روي سي هجمان" هذا الرأي فيقول "اللغة قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما"[5]

فاللغة نسق من العلامات بمستوياتها (الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي)

إن اللغة بالمعنى الواسع وسيلة للتبليغ أو التواصل مستَعملة من قبل المجموعة الإنسانية أو الحيوانية لبث مرسلات[6]

يقول دوسوسير "هي نظام من الرموز الصوتية في أذهان الجماعة اللغوية يحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعا من مجتمعه"[7]

إن التواصل أساس الوجود الإنساني، يعدّ من أبسط الطرق الواصفة لوظيفة اللغة، رغم أن عملية التواصل البشري أكثر تعقيدا.

فالتواصل أساس التوازن النفسي والاندماج الاجتماعي للفرد وأساس الانتماء الثقافي، ويؤدي انعدامه إلى انعدام السلوك.

يعتبر التواصل نشاط قائم على قصدية صريحة يتضمن حالات للتدليل والدلالة بحيث لا يمكن الفصل بين الدلالة والتواصل.

كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، والدلالة باعتبارها سيرورة لا تتحدد من خلال نية التأثير المباشر في سلوك مخاطب مخصوص وهي لا تخلو من قصدية إبلاغية صريحة أو مفترضة، فقط من خلال المقام التلفظي[8]

يتضمن التواصل الإشارات وتعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون وكل ما تمّ من اكتشاف في المكان والزمان[9].

فكل وسائل الاتصال اللغوي هي أشكال التواصل باستخدام أدوات حديثة وأجهزة سمعية بصرية كالكمبيوتر والتلفاز وشبكة الإنترنيت، اتصال آلي أفرزته الثقافة الالكترونية[10].

لا ينحصر التواصل في تبادل لفظي تحركه قصدية صريحة، بل مجاله أوسع من ذلك، وهو مجموع ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية التي تستوطن الذات "كالإيماءات الجسدية وطريقة الجلوس... الخ" إضافة إلى ما يحيط بالذات من مكان وزمان وأشكال وعمران[11].

إنّ الظواهر الإنسانية لا يمكن أن توجد خارج رغبة الكائن البشري في التواصل، فمجموع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وجسده وإيماءاته وطقوسه ومعماره يندرج ضمن سيرورة تواصلية متعددة المظاهر والوجود والتجلّي إلى الحدّ الذي جعل الثقافة في كليتها سيرورة تواصلية[12].

قد يكون التواصل بديهيا، اجتماعيا نفعيا وقد يكون مصطنعا بحيث يتخذ أشكالا لا تفوضها الوسائط والوسائل الحديثة حسب الأفكار والمعتقدات والإيديولوجية التي تحكم السلوك وتشمل كل الأساليب الحديثة في التواصل من توجيه ديني أو دعاية سياسية أو تكوين إيديولوجي، إضافة إلى الإشهار والبرامج التلفزية والإذاعية...[13] وهذه من أهم الأساليب التي يمارس فيها الحجاج وتقنياته.

2_ الحجاج والتواصل:

إن السياق العام الذي ظهرت فيه العلاقة بين الحجاج والتواصل – التداوليات الحجاجية– يرتبط بالأساس بالتطورات التي عرفها العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وما تبع ذلك من تداعيات على البنية المجتمعية للعالم جمعت بين تنامي الشعور بضرورة تحقيق المكاسب والاستحقاقات عن طريق الحوار.

لقد اقترن الحجاج عند الفلاسفة القدماء بالاستدلال والبرهنة، كما اقترب من الدياليكتيك (فن الحوار) والبلاغة (فن الإقناع) والحجاج يقتضي تفاعل الندوات، أما البرهنة فتنفي الذات[14] مبتعدة عن تأثيرات اللغة والعواطف وظروف المكان والزمان، كما تبتعد عن دور المستمع والمخاطب.

إن الحجاج، بمعنى التحاج هو عملية تطبيق، وهذا التطبيق هو تطبق لنشاط اجتماعي ودعوة لانتصاب الفرد لتحقيق هذه العملية، لذلك فإن الحجاج ليس ممارسة عادية كما يرى البعض، بل مهارة نقدية تقوم على معالجة كل أنواع التطبيقات الاجتماعية[15].

ارتبطت البلاغة المعاصرة، وخصوصا منها نظرية الحجاج " Théorie de l'argumentation" وما تعلق بها من بحوث بمختلف الميادين الإعلامية والمعرفية والنقدية المعاصرة وهذا ما جعل مفهوم "الإقناع" مطلبا أساسيا في شتى العمليات الفكرية، حيث إنّ من الأدوار التي تؤديها هذه النظرية تعويض الغياب، خاصة في النصوص المكتوبة. ولأن المجتمع المعاصر أصبح مجتمع صورة، فقد صار لزاما على هذه النظرية تغيير الشكل والأسلوب والخطط الحجاجية في كل مرة تبعا لنوع المقام وطبيعة المخاطبين[16]. وهذا ما جعل "بيرلمان" يعتبر البلاغة مطابقة لنظرية الحجاج حيث حصر الأولى في الأخيرة، وقد وضح هذا في كتابه[17] الذي ألفه بالتعاون مع "تيتيكا" Olbrechts Tyteca . ونجد أن "بيرلمان" وضع تساؤلات حول العلاقة بين المخاطب والموضوع وتداخل المستمعين والموضوعات بفعل الثورة التكنولوجية والاتصالية، وما يتطلبه ذلك من تمييز بين المخاطبين الفعليين والمخاطبين الكونيين، وما يستدعيه كل منهما من خطاب، ومن هذا جعل الحجاج حوارا علميا بعيدا عن المغالطات([18]).

إن موضوع نظرية الحجاج عند "بيرلمان" يتعلق بالبلاغة وتقنيات الخطابات الموجهة إلى مختلف المستمعين.

3_ ملامح الحجاج وآلياته عند بيرلمان:

لقد طابق "بيرلمان" بين البلاغة والحجاج، معتبرا أن كل المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما (مكتوبة أو مقروءة أو مشاهدة أو حتى إشارية) هي عبارة عن مستويات معينة من مستويات الحجاج، بما في ذلك التضمين والشواهد والأمثلة، حتى السخرية والمفارقة هي عبارة عن " حجة في ذاتها وكذلك

الاستعارة، إنها استدلال قائم على المقايسة المكثفة... وبالمثل، فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا، بل إنها لتنتمي إلى بنيته الخاصة"[19].

يتميز الحجاج في تصور بيرلمان "بخمسة ملامح رئيسية:

1_ أن يتوجه إلى مستمع.

2_ أن يعبر عنه بلغة طبيعية.

3_ مسلماته لا تعد وأن تكون احتمالية.

4_ لا يفتقر تقدمه –تناميه– إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5_ ليست نتائجه ملزمة"[20].

فهو إذن عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب[21].

إن مجال الحجاج في نظر "بيرلمان" يتعلق أساسا بالبحث في المماثل والمعقول والمحتمل وذلك في حال ما إذا كان هذا الأخير يفلت من كل الحسابات الحتمية[22].

فموضوع نظرية الحجاج عند "بيرلمان" يتعلق بالبلاغة وتقنيات الخطاب الموجهة إلى مختلف المستمعين. لأن السامع –المخاطَب هو السبب الفعلي الذي لولاه لما كان الحجاج أصلا– فهو يسهم بصفة فعلية في تشكيل المعالم الكبرى للمادة الحجاجية المقدمة من قبل الخطيب.

ونظرية الحجاج باعتبارها بلاغة جديدة تشمل حقل الخطاب في مجموعه الذي غايته الإقناع، بغض النظر عن نوعية المستمع الذي يتوجه إليه الخطاب.

قد وسع "بيرلمان" من حدود الخطابة وذلك بدمج الفلسفة والعلوم الإنسانية عامة، والتحاور اليومي في نموذجه الموحد الذي أطلق عليه: البلاغة الجديدة.

والواقع أن "بيرلمان" بهذا قد وقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام سواء النفسي الشخصي الجماهيري، أو الشعري، أو خطاب المختصين في مجال القانون والعلوم الإنسانية([23]) ونشير إلى أن الحجاج قد استخدم كفرع من فروع التواصل خاصة الذي يهتم بالرسائل الإقناعية وصار شأنا من شؤون نظرية التواصل، إلا أن "بيرلمان" لم يول اهتماما كبيرا لآليات التواصل اللغوي المباشر والمألوف، لكنه اهتم بمظاهر جديدة من التواصل والتجاوب (في المكتوب والمنطوق والإشاري) يكون فيها الهدف تأسيس بناء فكري عميق تندمج فيه أبعاد المتكلم والسامع والمقام معا، بحيث يحمل المنتج الجديد الخصائص الجوهرية لهذه المكونات الثلاثة.

الخاتمة:

وختاما نتبين أن الحجاج يستمد خصائصه من الحياة اليومية للناس وقيمهم، والتواصل بينهم، فكل خطاب يصبح بهذا المعنى كامنا داخل اللغة حيث تمنحه العناصر الأولية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل. ولا شك أن اللغة التواصلية كانت بمثابة الدور الأساسي في الحجاج وتقنياته، كما أن التواصل لا يتحقق إلا ضمن وضعية تفاعلية تتسم بالمظاهر الحجاجية بين المتخاطبين، وهذه القواسم المشتركة تتفق في أن كل نشاط لغوي موجه للتواصل في إطار بلاغة الحجاج، أي في إطار الحوار الذي يسوده الإقناع والتأثير وإبلاغ الحجج بواسطة اللغة.

هوامش البحث و إحالاته :

1. قراءة جديدة للبلاغة القديمة،رولان بارت، ترجمة عمر أوكان، دار إفريقيا الشرق، المغرب، ص 6.
2. الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971. ج1 ص 33.
3. نفسه، ص 33.
4. الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، تحقيق إبراهيم العجوز، بيروت 1985 الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971. ج1 ، ص 16.
5. اللغة والحياة والطبعة البشرية، روي سي هجمان، ترجمة داود حلمي أحمد السيد، عالم الكتب، ط 2، القاهرة 2000، ص 15
6. اللغة والتواصل، د عبد الجليل مرتاض، دار هومة 2000، ص 28.
7. De Saussure F : cors de linguistique générale, Ed, prépare tullios de moro payothèque 1979, Paris, p 65.
8. مقدمة في اللغويات المعاصرة، د شحادة فارع وآخرون، دار وائل للطباعة، ط 1، عمان 2000، ص 13.
9. معرفة اللغة، جورج بول، ترجمة محمود فراح عبد الحافظ، دار الوفاء، الإسكندرية 1999، ص148.
10. اللغة والحياة والطبيعية البشرية، ص 168.
11. استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2003، ص 12، 13.
12. الآلية الحجاجية للتواصل، ليونل بليجر، ترجمة عبد الرفيق بوركي، مجلة علامات، ص 36.
13. السيميائيات وموضوعها، سعيد بنكرد، مجلة علامات، عدد 21، ص 79.

14. الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد أمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بيروت 2008، ص 23.
15. الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم د حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الجزء الثاني، اربد، الأردن، ص 280.
16. المرجع نفسه، ص 179.
17. Chperman, traité de l'argumentation 4éme édition, 1983, Edition de l'université de Bruxelles.
18. الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 106.
19. هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، أوليفي روبول، ترجمة محمد العمري، مجلة علامات في النقد، ديسمبر 1996، ص 77.
20. المرجع نفسه، ص 77.
21. الحجاج مفهومه ومجالاته، ص 182.
22. المرجع نفسه، ص 183.
23. الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 135.

-المصادر والمراجع المعتمدة في البحث :

- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1971. ج1.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد أمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بيروت 2008م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم د حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الجزء الثاني، اربد، الأردن.
- استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2003م.
- اللغة والتواصل، د عبد الجليل مرتاض، دار هومة 2000م.